

## المكان

### في رواية "البيارة الضائعة"

د. وليد محمود أبو ندى

كلية الآداب - قسم اللغة العربية

الجامعة الإسلامية - غزة - فلسطين

**ملخص:** تعالج الدراسة المكان في رواية "البيارة الضائعة" للشاعر والأديب الفلسطيني (ناهض منير الرئيس 1937-2010)، وتبحث في خصائص المكان الحسية وانثيالاته الوجدانية والنفسية على صفحة حياة الفلسطيني اليومية، والصورة العامة التي انطبع عليها المكان الفلسطيني في زمن ما قبل النكبة، وتدرس الدلالة السردية للمكان ووظيفته في البنية السردية للرواية، وتحلل الأدوات التقنيّة السردية التي وظفها السارد في إبراز دلالة المكان وقيّمته الجمالية في الرواية.

### The place in the novel "Lost Albiyara"

**Abstract:** The study addresses the place in the novel - lost Albiyara - for the Palestinian writer and poet (Nahed Munir Rais 1937-2010), and it looks at the sensory, emotional and psychological properties of the place on the page of the daily Palestinian life and the general picture that impressed on the Palestinian place before the Nakba time, and studies the narrative significance of the place and its function in the narrative structure of the novel, and also analyses the technical narrative tools that employed by the narrator to highlight the significance and aesthetic value of the place in the novel.

### المقدمة

كان المكان للعربي القديم مصدر إلهام شعري، وإشعاعاً عاطفياً يجد فيه دفء العاطفة، وأنيس الذكريات، وإلحاح الشعر القديم على البداية به، يؤكد على قوة ارتباط الإنسان العربي بالمكان، وصعوبة انفكاك تأثيره عنه.

وقد شاء القدر أن يرث الفلسطيني اليوم الاهتمام بالمكان، لأنه عاش مأساة التجربة المكانية، وانطلقت معاناته الحقيقية من بعده عن مكانه الأول تهجيراً أو نزوحاً، إذ إن تجربة الاقتلاع والنفى القسري للفلسطيني عن أرضه، قد فرضت نوعاً من الخصوصية في علاقته بالمكان، فالحلم الفلسطيني يشد الفلسطيني دوماً إلى مكانه مهما تعددت المنافي والأماكن<sup>(1)</sup>، ولذا كان للمكان في النفس الفلسطينية موقع متميز يجمع بين الوجد والتذكر وأمل العودة القريبة.

والرواية الفلسطينية المعاصرة وهي وتغوص في أعماق الشيء الفلسطيني إنساناً وأرضاً، لا تسأم من الإلحاح على خصوصية المكان عند الفلسطيني وحساسيته تجاهه، وهي بهذا إنما تحاول أن

(1) الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية: 140، د. محمد علي عودة (1997).

## د. وليد أبو ندى

تعبّر عن همّ الفلسطيني الأول المتمثل في فقدته لمكانه الأول وقناعاته الراسخة أن العودة إليه هي الحل الأوحد لوقف نزيف المعاناة.

وتأتي رواية "البيارة الضائعة" للكاتب الراحل منير ناهض الرئيس<sup>(1)</sup>، لتذكر بالبدايات الأولى لضياح الأرض وتشرّد الإنسان، وفي تلافيف ذكريات الضياح تبرز الملحمة والبطولة، المستندة إلى عشق الأرض وخصوصية المكان، لذا تعالج هذه الدراسة "المكان" في رواية "البيارة الضائعة"، لما له من وظيفة بنبوية في العمل الروائي عامة، إذ يؤدي المكان: "ضمانة التماسك البنيوي للنص الروائي من حيث جملة العلائق النصية التي ينسجها مع النص"<sup>(2)</sup>، وتبرز له خصوصية في الرواية الفلسطينية تتصل بالذاكرة الجمعية للفلسطيني، والانتثال المتجدد لخيالات وذكريات مكانه الأول على صفحة حياته اليومية "فتدمير النواة الخفية (فلسطين) من قبل الاحتلال جعل المكان هاجساً في المخيلة الفلسطينية"<sup>(3)</sup>.

والبيارة الضائعة هي الرواية الوحيدة للشاعر والأديب الرئيس، وقد كتبها على فراش المرض العضال الذي نزل به حيث كانت أصابع المنية تداعب روحه، وهي آخر ما جادت به القريحة الأدبية، وكان الأديب الراحل يخطط لخماسية روائية تحكي ضياح الأرض وعودتها<sup>(4)</sup>، ولكن تخطفته يد المنون، ولما يكمل الأديب الفلسطيني حلمه في كتابة رواية العودة، ولعل جيلاً جديداً يكتب عودة البيارة.

تدور الرواية حول بيارة "آل الأكوغ" التي تقع في قرية سلمة القريبة من مدينة يافا، وتحكي السلوك الصهيوني الطامع في البيارة في زمن ما قبل النكبة (1948)، وأشكال التآمر والكيد التي كان يتعرض لها الفلاح الفلسطيني المتمسك بقيمه وأرضه، وتروي صفحة مطوية من بطولات التاريخ الفلسطيني العتيق، والتحام الجميع في القرية والمدينة في مقاومة الاعتداء على

(1) من مواليد مدينة غزة بفلسطين عام 1937، وفيها تلقى علومه الابتدائية والثانوية. ودرس الحقوق بجامعة القاهرة وتخرج منها وعمل في سلك النيابة، ثم تطوع في 1965/1/1 ضابطاً في جيش التحرير الفلسطيني. شارك في تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين والاتحاد العام للطلبة العرب. مارس في حياته العملية مهام قتالية وتنظيمية وقضائية في إطار منظمة التحرير الفلسطينية ألف العديد من الكتب في السياسة والشعر وقصص الأطفال، ونشر مئات المقالات والدراسات في صحف لبنانية وسورية وخليجية، فضلاً عن صحف منظمة التحرير الفلسطينية. شغل منصب وزير العدل في الوزارة الفلسطينية عام 2003 إلى 2005م. صدرت روايته "البيارة الضائعة" قبل رحيله بيومين، إذ توفي يوم الثلاثاء 2010/4/13 في مدينة غزة.

(2) شعرية المكان في الرواية الجديدة: 5، خالد حسين حسين (2000).

(3) ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر: 5، إبراهيم نمر موسى (2001).

(4) هذا ما ذكرته لي الأستاذة (سناء منير الرئيس) التي أملى عليها الأديب روايته.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

الأرض، وتكشف عجز الواقع العربي عن نصره فلسطين، عبر معسكرات الوهم التي أنشئت في الدول العربية، التي كانت تفتقر إلى كل شيء يصح للنصرة بدءاً من المروءة وانتهاءً بالسلاح، وتغوص الرواية في عمق الإنسان الفلسطيني وعلاقته بالأرض ونظرته إليها وتبرز قيمتها في حياته.

وتبرز قيمة الدراسة من كونها الدراسة الأولى التي تعالج هذه الرواية حديثة الكتابة والمتفرقة في عنوانها، فلم يسبق لرواية فلسطينية أن اتخذت من "البيارة" عنواناً وموضوعاً<sup>(1)</sup>، وقد سلفت دراسات قليلة حول شعر الريس<sup>(2)</sup>، والدراسات العلمية حول أدبه ما زالت محدودة، مما يعطي تشجيعاً للسیر في مثل هذه الدراسات حول أدب الريس موضوعاً وفناً.

### دلالة المكان بين اللغة والفن:

جاء في القاموس المحيط: "المكانة: كالمكينة، المنزل عند ملك، ومكن، ككرم، وتمكن فهو مكن، والمكان: الموضع"<sup>(3)</sup>.

وجاء في لسان العرب "المكان والمكانة واحد، وفي التهذيب عن الليث: مكان في أصل تقدير الفعل مفعّل، لأنه موضع لكيونة الشيء فيه، ابن سيده: والمكان الموضع، والجمع أمكنة، وأماكن جمع الجمع"<sup>(4)</sup>.

يأخذ لفظ "المكان" الدلالة الحسية حين يشير أصحاب المعاجم إلى المكان المادي أي: الموضع، وترتقي دلالة المكان حين تعني المنزلة في القلب أو النفس، ويدل على قوة نفسية ومادية عندما يشير إلى التثبيت والاطمئنان وطول اللبث.

ولعل هذه الدلالات يصح استشفافها واجتماعها في الظلال النفسية والحسية للمكان، لا سيما إذا كان هذا المكان هو مكان الإنسان المرتبط به أو المقيم فيه أو النازح عنه قسراً أو طوعاً. وهذا يقودنا إلى استقراء الدلالات الفنية للمكان في النقد المعاصر، فالمكان عند جاستون باشلار: "هو ما عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيز، وهو يشكل مركز اجتذاب

(1) انظر بيلوجرافيا الرواية الفلسطينية (ملحق)، الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين: 123، د. شكري عزيز (2003).

(2) انظر، دراسة د. عبد الخالق العف: المكان مقاوماً في ممالك النارج (دراسات في الشعر الفلسطيني المقاوم): 75.

(3) القاموس المحيط: مادة (مكن)، مجد الدين الفيروز آبادي.

(4) لسان العرب: مادة (مكن)، محمد بن مكرم (ابن منظور).

## د. وليد أبو ندى

دائم<sup>(1)</sup> وهو: "لا يقتصر على كونه أبعداً هندسية وحجوماً، ولكنه فضلاً عن ذلك نظام من العلاقات المجردة يُستخرج من الأشياء المادية الملموسة، بقدر ما يستمد من التجريد الذهني"<sup>(2)</sup>. فالمكان ليس بقعة مادية فحسب، إنه تركيز عاطفي ومركز جذب أثري ومنهل للذاكرة وامتداد للخيال، وهو ما يضيف الجمالية والألفة أو العكس، فهو استشفاف عاطفي أكثر من كونه قيمة مادية، ولذا فإن: "الصفات الموضوعية للمكان ليست إلا وسيلة أو وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية، إذ إن تلك الصفات الموضوعية تبدو مفروضة على المكان وليست خصائص كامنة فيه، ولذا فإن التشكيل الشعري للمكان في أغلب الأحيان مجافياً لهذه المقاييس، ولكنه في الوقت نفسه يكون تعبيراً صدق عن حقيقة المكان النفسية"<sup>(3)</sup>. وقد تعدد المكان في الرواية بتنوع الطبيعة الجغرافية لفلسطين، وقد وقفت على أهم الأمكنة التي دارت في تفاصيل الرواية، وشكلت لحمة سردية، مع سائر عناصر الرواية، حيث بات المكان في الرواية المعاصرة مكوناً سردياً لا تقوم الرواية إلا به، وتندرج هذه الأمكنة فيما يلي:

أولاً - البيارة:

دارت أحداث الرواية حول بيارة "آل الأكوع"، بحواكيرها الثلاث، وبقسميها الجنوبي والشمال، التي تقع في قرية (سلمة) أكبر قرى يافا، وهي على بعد خمسة كيلو مترات منها ومحاطة من جهاتها الأربع بعدد من المستعمرات المسلحة<sup>(4)</sup>، ولاختيار يافا وسلمه مكاناً للرواية دلالة يفصح عنها الراوي في تقديم الرواية: "اخترت بلدة سلمة ومدينة يافا بسبب ما حملته من رمز نصالي مميز في مرحلة 1947-1948"<sup>(5)</sup>، ويرتبط مدلول البيارة في الذاكرة الجمعية للفلسطيني بالمكان الأول المتصل بالطمأنينة والخير والسعة، وخلو الحياة من الهموم المترابكة، وتحتل البيارة في الوجدان الفلسطيني، مكانة متقدمة من التعلق والشغف الذي يصل إلى منزلة الاندماج والتوحد، ولذا لا عجب أن تشيع أغاني البيارة ومفرداتها في الموروث الشعبي الفلسطيني<sup>(6)</sup>، ولأن: "الجانب

(1)جماليات المكان: 179، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا (1988).

(2)إضاءة النص: 5، اعتدال عثمان (1988).

(3)التفسير النفسي للأدب: 59، عز الدين إسماعيل (ط/4).

(4)انظر: نكبة فلسطين: 320، حسني أدهم جرار (1994).

(5)مقدمة الرواية: 2.

(6)انظر دراسات في الفولكلور الشعبي الفلسطيني: 236 وما بعدها، عيسى الحسيني (2006).

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

الكبير للصراع بين الفلسطينيين والصهاينة، كان صراعاً حول الأرض الزراعية<sup>(1)</sup>، لذلك يوظف الروائي البيارة في نسيج روايته.

وقد وقف الراوي عند الوصف الحسي للبيارة بمفرداتها الفلسطينية المشهورة كالسياح.. والغيلانة.. وبئر الماء.. والناعورة.. وشجر البرتقال.. والبركة.. والماتور.. الخ.

وهذه المفردات شكلت تفاصيل الصورة الحسية للبيارة، ولم تكن الصورة الحسية منقطعة عن التوظيف السردية، ففي صورة حسية للبيارة يربط الراوي بين التوصيف الحسي وحركة المناضلين الذين كانوا يترددون على بيارة "آل الأكوع": "من وراء سياج الغيلانة ذات الأزهار الصفراء، ظهرت رؤوسهم واحداً تلو الآخر في تتابع ونيد كأنهم يخطرون فوق جمال غير مرئية حجبها كثافة الأغصان.. هل كانوا قافلة في طريقها للحج؟ لا ليس بالصمت والتخفي تخرج تلك القوافل.."<sup>(2)</sup> وتبرز علاقة المناضلين بأبي جاسر الذي كان يقود ثلة من المقاتلين، حيث تبدو بيارة "آل الأكوع" مكاناً آمناً للقاء: "كان يتقدمهم، شأنه في الأيام الخوالي، وعلى حين غرة، سقطت رؤوسهم، وانتصبت في موضعها شواهد قبور.. أرادت أن تصرخ، فنادها من تحت شجرة الجميز العتيقة، يطلب معامل القهوة المرة.."<sup>(3)</sup>، ودلالة الغيلانة وشجرة الجميز العتيقة التي تشكل محور الصورة الحسية بينة، في إثبات حق الفلسطيني في أرضه فهو ليس بحاجة إلى تزوير التاريخ، ولا بحاجة إلى نبش القبور، لإثبات حقه كما يفعل الصهيوني، إن حق الفلسطيني تتطرق به أزهير الغيلانة وعتيق الشجر وبركة الأرض المضمخة بدم الشهداء.

ويسترسل الراوي في الإحاطة بتفاصيل الصورة الحسية للبيارة: "افترق حماد عنه ليدير الماء على ثلاثة صفوف معاً من قسم الجريفوت، وليس إلا الظلمة ظلمة الأشجار وظلمة المجورات المحفورة تحتها للسقي بعد طول أوائل الربيع وخماسينها، كانت الجدران عالية لأنها لم تسق بعد.."<sup>(4)</sup> وهي صورة ليلية تحاكي الحقيقة في وصف الطريقة الفلسطينية في سقي الأشجار وحفر المجورات التي تمسك الماء حول الشجرة، فهي أقرب إلى التوثيق التاريخي لحياة البيارة الفلسطينية قبل النكبة، وتتكرر مثل هذه المشاهد الحية في الرواية، ويبدو أن الراوي كان يجد المتعة في وصفه لعالم البيارة الفلسطينية، مما انعكس ذلك على مشاهد الرواية.

(1) حركة التجريب في الرواية الفلسطينية من الستينات حتى 1995: 83، د. عثمان عدنان الجواريش (2003).

(2) البيارة الضائعة: 3.

(3) البيارة: 3.

(4) البيارة: 13.

وتبدو البيارة بفضائها الواسع حيث ينشر الراوي عدسته التصويرية كي يعطي مشهداً حسيّاً أوسع للبيارة في ثنايا حديثه عن أم جاسر وارثة البيارة بعد استشهاده زوجها "سيدة قادرة على الإمساك بمقاليد البيارة والحواكير الثلاث وفرض شخصيتها على العمال وجيران الأرض وضامني الحمضيات والمقاتي..."<sup>(1)</sup>.

ولا تقف صورة البيارة عند المشهد الحسي، بل يبرع الراوي في التوصيف الجمالي للبيارة مستثمراً جماليات اللغة الشعرية: "انفشت غيمة كانت تحجب وجه الهلال الياقع الذي سطع قوياً فأضاء الأرض وبساط الأعشاب الربيعية الذي يكسوها كانت الأرض متبرجة بصنوف الحنون وشفائق النعمان والدخن والبلان التي تدخر بذورها البرية طوال العام كي تطلعها زينة لها في مهرجان الربيع.." <sup>(2)</sup>.

إن الجماليات الشعرية التي يوظفها الراوي في وصف البيارة تبرز عشق الفلسطيني لمكانه، حيث ينسكب هذا العشق جمالاً في النفس، ويمتد إلى عشق الزمان الفلسطيني المتمثل في فصل الربيع، الذي كشف عن تبرج الأرض وقد ازينت بالحنون والدخن "هذه الخضرة التي تتموج في النسيم الواهن، تلتهم فوقها حبات الندى، وتأتلق على سطح زيتي مفعم بماء العافية الخضراء.. فإن شيئاً جديداً قد جذب نظرها منذ الربيع الأول الذي زف عينها الأكاليل البيضاء الصغيرة المتفرقة هنا وهناك.." <sup>(3)</sup>.

ثم يرتقي التوصيف الجمالي إلى حالة وجدانية تبلغ بالعلاقة مع المكان/البيارة، حالة من التوحد والهيام عند الفلاح الفلسطيني حيث يمثله أبو جاسر ثم ترثه أم جاسر، وما عادت البيارة مكاناً مزروعاً بل تصبح إحساساً ينسكب في نفس الفلسطيني وينزرع في الكبد والأحشاء: "ربما كان الفقيد يحس إحساساً غامضاً بالموت الذي كان في انتظاره؛ ولذلك عمل قصداً على إعدادها لرعاية تركته وزرع البيارة في كبدها وأحشائها أثناء زراعتها في الأرض" <sup>(4)</sup>.

وتبرز علاقة الفلسطيني بأرضه، علاقة وجدانية حية، وغرس للشجر في الكبد قبل غرسها في الأرض، وما فتئ الفلسطيني يبرز في كل مناسبة صورة من صور عشقه وهيامه بالأرض، حيث: "كانت علاقته بأرضه على الدوام علاقة عشق وتوق إلى العيش فوقها بحرية تامة" <sup>(5)</sup>.

(1) البيارة: 28.

(2) البيارة: 170.

(3) البيارة: 219.

(4) البيارة: 30.

(5) حركة التجريب في الرواية الفلسطينية: 82.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

ويعبر عن هذا بأساليب متجددة، تجذر ارتباطه بأرضه وبيارته: "كانت تلك بداية جلساتها على حوض البركة حين يحل الربيع، حتى لم يعد يحلو لها إذا حلَّ الفصل أن ترضع أطفالها الآخرين إلا في ذلك الموضع.. وفي تلك الجلسات بدأت تحس أن المكان الخفي الذي ينبع منه حليبها قد يكون هو الزهر الأبيض ذاته"<sup>(1)</sup>.

ويبدو الإنسان الفلسطيني في المشهد السردي امتداداً للمكان الذي عشقه وأحبه، وتتجسد في رمزية "الزهر الأبيض" علاقة الأبناء الفلسطينيين وهم يكبرون على الارتباط بالأرض، بحيث يغدو "حليبهم اليومي" أيضاً من بركات أرضهم التي يتغذون بخيراتها، وهذا يفسر أسطورة تعلق الفلسطيني بأرضه حياً وميتاً، كما كان يتراءى لأم جاسر ظل الشهيد الذي يكتنف البيارة: "هي ما برحت بعد السنوات السبع التي انقضت على غيابه تستشعر ظله الممدود فوق البيارة، فهي ليست بيارة أرملة تدعى هدايت ولكنها كانت وستبقى بيارة بطل اسمه أبو جاسر"<sup>(2)</sup> وهنا توظيف للموروث الفلسطيني في علاقة الشهيد بالمكان الذي يحب، فإن غاب جسده عن المكان، فإن روحه حاضره تظل ذلك المكان، وهي حالة وجدانية تقوم على الربط بين المكان والشهيد وتستند إلى موروث ديني يرى في الشهيد حياً لم يموت، وتحرس روحه المكان الذي أحب، وهذا ينسجم مع الحالة الوجدانية التي تجسدها أم جاسر والتي ترفض رحيل الزوج الشهيد، وتصر على وجوده وحضوره الذي يظل البيارة، وهذا يبدو معادلاً نفسياً للشعور بالتعب والضعف أمام تتابع الأحداث وخوفها الشديد من ضياع البيارة.

ويتضح من السرد السابق أن الروائي لم ينجح فقط في تحويل الصورة الحسية إلى صورة جمالية تلتقط بالبصر، كما يقول "مرتاض" في توصيف الأدب السردي القادر على تحويل المكان من: "مجرد تمثّل ذهني لدى القراءة أو أثناءها، إلى استحضار قائم على التصوير الحسي الملتقط بالبصر، فهو يصل بالمكان إلى أرقى ما يمكن أن يبلغه الحيز من تمكّن"<sup>(3)</sup>، بل يتغلغل في أعماق المكان لكي يحيله إلى لوحة جمالية، وإلى استشفاف عاطفي يختزن في تربته الكثير من معاني العشق والوفاء.

ومتلّت البيارة لأم جاسر البيت الدافئ والذكريات العتيقة والمكان الأليف: "لعل من أسباب مبارحة أبنائها البيارة إلى المدينة إحساسهم بضيق البيت الذي شهد طفولتهم في الناعورة في حين بقيت

(1) البيارة: 220.

(2) البيارة: 67.

(3) في نظرية الرواية: 156، د. عبد الملك مرتاض (1998).

## د . وليد أبو ندى

من ناحيتها مشدودة إليه غير ملقبة بالا إلى أحد<sup>(1)</sup>، ويزداد إصرارها على التمسك بالبيت القديم عبر جواب صريح لابنها (نصوح) وهو يرجوها الانتقال إلى البيت الجديد: "أذهب أنت وأقم هناك، أما أنا فلن أنتقل من هنا إلا إلى القبر"<sup>(2)</sup>.

فالمكان يمثل للأبناء عنصراً طارداً، بينما تتشبث الأم بالمكان الأمومي وتفسر هذا التشبث بقولها: "تعودنا على هذا المقام ورأينا الخير فيه ورزقنا فيه بالذرية.."<sup>(3)</sup> إن هذا التعود هو ما عبر عنه (باشلار) بالألفة، عندما فسر تشبث الإنسان بالبيت القديم: "البيت أكثر من منظر طبيعة، إنه حالة نفسية.. إنه ينطق بالألفة"<sup>(4)</sup> وملازمة المكان الذي اكتشف فيه الإنسان سعادته وخيره، هي حالة إنسانية فطرية، تفسر تشبث أم جاسر بالبيت الضيق القديم.

### ثانياً/ المدينة:

تبدو "يافا" من خلال الرواية في الصورة الحضرية العامة، التي كانت عليها قبل النكبة، إذ تنتشر المقاهي ودور السينما والمطاعم وعيادات الأطباء ومكاتب المحامين ومواقف السيارات، والعمارات ذات الطوابق العليا كمعالم تميز المدينة عن القرية: "ليس مقهى أبو ربيع إلا سقف درج في مدخل إحدى البنايات في شارع فرعي قرب ميدان الساعة وسط مدينة يافا وقد صفت ثلاث طاولات صغيرات في الزاوية اليمنى بحيث لا تعطل مرور النازلين والصاعدين بين الشارع وشقق المحامين والأطباء ومنازل السكان في الطوابق الثلاث العليا... كان معظم زبائن أبو ربيع من سائقي التاكسي الذين لا تستغرق جلسة أحدهم أكثر من عشر دقائق، أما الزبائن الأكثر تمهلاً هم بالعادة زبائن الأطباء والمحامين.."<sup>(5)</sup>.

وهي معالم المدينة الفلسطينية قبل النكبة، تنضح بالحياة والحركة، وتتوافر فيها مراكز الخدمات والعمل، كما تنتشر فيها أماكن اللهو والترفيه: "ما زال الوقت يسمح بالذهاب للسينما قالت وجدان إن سينما أستوديو فلسطين ما زالت تعرض فلما جديدا لعبد الوهاب، وانصرف الرفيقان إلى السينما متعجلين"<sup>(6)</sup>.

(1) البيارة: 222.

(2) البيارة: 222.

(3) البيارة: 222.

(4) جمالية المكان: 86.

(5) البيارة: 51.

(6) البيارة: 73.



## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

ويبدو أثر المدينة في سلوك أبنائها المتمثل في انفتاحهم، واصطحاب زوجاتهم إلى دور السينما والمطاعم، كما اعتاد عليه الحلاق ميسرة البحري "ولعله كان من أوائل أهل المدينة الذين اصطحبوا زوجاتهم إلى دور السينما، وأجلسوهن في المطاعم على شاطئ البحر" (1).

ويبدو حرصهم على مصالحهم الخاصة، والصرافة وعدم المجاملة: "لم يكن نصوح بفطرته من الطراز الجمال، وقد جاءت إقامته المبكرة في المدينة فأكسبته شيئاً من عادات أهل المدينة المرتبطين بأعمال يومية ومواعيد ملزمة ينخرطون فيها ستة أيام تاركين يوم الجمعة لراحتهم وللترويح عن نساءهم وأطفالهم" (2).

ويتضح حذر أبناء المدينة وتربيتهم في تصديق الآخر: "كان من رأي زهير أن لا تعطّيهم الوالدة شيئاً إلا إذا أبرزوا ورقة مكتوبة أو دعموا ادعاءهم بشهادة الشهود" (3).

ولم تعد المدينة مكاناً جغرافياً تتحرك فيه الشخصيات، بل باتت المدينة فضاءً اجتماعياً وأخلاقياً يبرز طبائع المدينة وأهلها، وتصور لهوهم وانحرفهم في زمن ما قبل النكبة: "كان عصام يعرف المدينة كما يعرف كف يده وكثيراً ما أخذ زهير بعد انتهاء النهار إلى مقاهٍ تقدم أجود الشاي، ومطاعم تقدم أشهى الفتات بأزهد الأثمان وحاول أن يزين له الدخول إلى بيوت الدعارة التي ظهر أنه يعرفها فلم يفلح قليلاً ولا كثيراً إزاء التوصيات والتحذيرات التي حرصت أم جاسر أن تؤكدتها بأقوى العبارات" (4).

وهي مرتع لحياة الليل التي يشارك فيها جاسر القادم من القرية وصديقه شاكر القادم من طولكرم: "على غير تشاور منهما سلكت أقدامهما الطريق الذي تعرفه إلى دار الجنائي فوجداها تعج كما توقعا بحركة البنات ساعة الغروب يأخذن أهبتهن لحياة الليل" (5).

ويبدو تباين تأثير المكان على الإنسان الفلسطيني (القادم من القرية) كجاسر نصوح وزهير، في حين ينحرف جاسر يتمسك زهير بقيم القرية المحافظة مع أخذه بالحد في معاملته المالية، وتبدو الصرامة في حياة نصوح ورتابة البرنامج اليومي.

وتبرز في يافا المتناقضات التي تجتمع في المدن عادة، ولكن في يافا يبرز التناقض في صورة سانجة، مما يشير إلى أن المدينة الفلسطينية في سلوكها العام، ليست بعيدة تماماً عن القرية

(1) البيارة: 91.

(2) البيارة: 122.

(3) البيارة: 119.

(4) البيارة: 184.

(5) البيارة: 69.

## د . وليد أبو ندى

الفلسطينية في ذلك الزمن السابق للنكبة، لأن المدن الفلسطينية: "عبارة عن بلدات ذات صبغة ريفية بعاداتها ونشاطها الاقتصادي وأنماط حياتها المختلفة"<sup>(1)</sup>.

ويبرز التناقض في إطاره العام فهي تجمع بين الفساد والبطولة والانفتاح والالتزام وبين الحقد والتسامح، وهي تجاور (تل أبيب) كما تجاور سلمة والعباسية ويازور.

ويبدو التناقض جلياً في شخصيات المدينة فالمحامي "قدورة النعمان" شخصية وطنية من قيادات يافا المعدودين، ولكنه فاسد في مسلكه فهو يبدأ نهاره بالمكالمات الفاضحة فهي: "ليست هامسة، إنها مسموعة بوضوح، تتحدث عن الليلة الماضية، أو تحدد موعداً لليلة تالية، بكلمات يتخللها الفحش"<sup>(2)</sup> والوسط الذي يتحرك فيه المحامي وسط فاسد: "لم يكن يدعو للاحترام، من برهان الحكاك ضابط الشرطة إلى حسيب زوج الست الذي يتحدث كل إنسان في المدينة عن ذمته الزور أمام المحاكم، إلى سمعان فريد المقامر الأصلع الذي يطفح وجهه دائماً بحمرة الشراب..<sup>(3)</sup>

وزهير - القادم من القرية - لا يقوى على التعايش مع متناقضات المدينة، فلذا يصيبه الكره من المدينة وأجوائها الفاسدة: "كان يحب يافا مع علمه أنها تشتمل على المتناقضات، لكنه في تلك اللحظة كرهها ووجد نفسه يستقل الحافلة ويذهب إلى القرية..<sup>(4)</sup>

وصرح زهير بكرهه للمدينة، ولكن المختار ينصف المدينة بقوله: "أنت مخطئ، إن فيها العلماء والشرفاء والصالح والمكافحين في سبيل لقماتهم، إلى جانب السيئين والمنكودين.. وهي قلما تدع المقيم فيها على الحالة التي كانت له من قبل، إنها طاحونة"<sup>(5)</sup>.

ومقولة المختار عن المدينة يذكرنا بالموقف الأدبي لجبرا من المدينة: "إذا أردت أن ترفض الفن فعليك أن ترفض المدينة، كلاهما توأمان، وإذا أردت الفن فعليك أن تعانق المدينة"<sup>(6)</sup> وموقف زهير من المدينة كره عابر سرعان ما يزول، ويعود أدرجه إلى الانسجام مع حياة المدينة.

وتبدو المدينة مساندة للقرية في جمع المال والوقوف أمام كيد العصابات الصهيونية، وهي مركز القرية وملجأ حاجاتهم في الملمات، وفي اجتماع شباب سلمة في النادي الاجتماعي، يذكر

(1) حركة التجريب في الرواية الفلسطينية: 82.

(2) الليبارة: 178.

(3) الليبارة: 179.

(4) الليبارة: 188.

(5) الليبارة: 188.

(6) أفنعة الحقيقة: 88، جبرا إبراهيم جبرا (1992).

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

بعضهم بعضاً، بحاجتهم للتنسيق مع يافا وضرورة ذلك: "على أننا لم نتناول نقطة جوهرية، هي مسألة التنسيق مع يافا ومع القرى المجاورة.. لأن فلسطين في خطر ويد الله مع الجماعة"<sup>(1)</sup>.  
والحاج عيسى-صاحب محددة في يافا- يساند القرية في حل لغز بئر شلومو والتغلب عليه ويبرز دوره النضالي وكأن مهمته الجديدة استمرار لنضاله السالف: "كان الحاج عيسى مجمعاً لأخبار يافا كلها لأن عمله في الحديد جعله مقصداً لأولئك الذين أحسوا حرج الزمن وتسارع الأخطار وليس في يدهم إلا القليل، وقد آلى على نفسه أن يصنع أشكالاً بدائية من البنادق ويبيعهها للراغبين بسعر التكلفة"<sup>(2)</sup>.

وهي مكان للصراع الشرس مع الصهاينة، حيث تفجير محددة الحاج عيسى من قبل العصابات الصهيونية: "وفي يافا فجعت المدينة ظهيرة أحد الأيام بانفجار كبير يهزها، وتسامع الناس أن مصدره محددة الحاج عيسى.. علمت المدينة كلها أن الحاج عيسى نجا من الموت المحقق وأن اليهود استهدفوه"<sup>(3)</sup>.

ورد الحاج عيسى ومجموعة من المناضلين بنسف مقر "الهاغانا"، ثم الاشتباك المباشر بين مقاتلي يافا، وعصابات الصهاينة، ويبدو بسالة أهل يافا في الدفاع عن مدينتهم: "وقف عوني وفارس في الخندق الأول قبالة تل أبيب مع نخبة من المناضلين.. وقد حمي وطيس الاشتباكات فانقطعت الحركة ما بين هذا الخط الأمامي المتقدم وبين المدينة.. وهنا جاء دور الأهالي الذين أرسل بعضهم أبناءه حاملين ما يتوافر في البيوت إلى الخط الأول.. وتصدياً معاً للهجوم الكاسح واستتبلاً بالعناد والتصميم كله إلا أنهما ما لبثا طويلاً حتى سقط كل منهما مضرجاً بدمائه"<sup>(4)</sup>.  
ولعل هذا يرفع شيئاً من "اللوم التاريخي" عن الفلسطيني الذي اتهم ببيع أرضه، أو التقصير في الدفاع عنها، ويبرز بطولة الإنسان الفلسطيني الذي قاوم اغتصاب أرضه بكل عناد وبسالة، وقضى شهيداً وهو يرد عن أرضه الاحتلال والعدوان.

وتغدو يافا في آخر أيامها قبل السقوط مدينة خالية من سكانها، مضطربة الأحوال يغلب على أهلها الشعور بالعجز والقهر وتبحث كل عائلة من أهلها عن مكان آمن، في غير المكان الذي أحبته: "يوماً بعد يوم اكتست المدينة بطابع غير طابعها الأول تناقصت الحركة في الشوارع وخلت

(<sup>1</sup>) البيارة: 43.

(<sup>2</sup>) البيارة: 211.

(<sup>3</sup>) البيارة: 299.

(<sup>4</sup>) البيارة: 309.

## د . وليد أبو ندى

الشوارع الكبرى من المارة ومال الناس على استخدام الشوارع الداخلية كما أخذت نقل البضائع في الأسواق على نحو ظاهر ..وأدى هذا كله إلى ضيق الناس بهذا الوضع<sup>(1)</sup>.  
فعلاقة الشخصيات الروائية بمدنيتهم هي علاقة محبة وألفة وانفتاح على الحياة، وصدق انتماء إليها يصل إلى حد الاستبسال والدفاع عنها والتضحية بالحياة من أجلها، وعندما يستحيل التشبث والبقاء، تكون الهجرة والنزوح، ومن هنا تتغير العلاقة مع المدينة: "تبعاً لتغير موقع المدينة من نفس الفلسطيني، أو تبعاً لقرب هذه المدينة نفسياً من الوطن، أما إذا كانت المدينة جزءاً من الوطن نفسه، فإن العلاقة تكون حميمة في أغلب الأحيان"<sup>(2)</sup>.  
ولم تعانِ الشخصيات المدنية في الرواية من صراع حاد في المدينة، كما انطبع في صورة الشعر العربي المعاصر والرواية العربية من عصابية حضرية للمدينة تتصل بالقلق والتوتر والاعتراب والوحدة<sup>(3)</sup>.

### ثالثاً/البحر:

نظر الفلسطيني إلى البحر على أنه يمثل جزءاً عزيزاً من وطنه الممتد المتنوع الطبيعية، وهناك طائفة من الروايات الفلسطينية تناولت البحر الفلسطيني، وغير قليل من الدراسات أبرزت دلالاته الرمزية المرتبطة بمعاناة الفلسطيني وانعكاساتها على صفحة نفسه وحياته، ودرست دلالات توظيف تراث البحر الفلسطيني<sup>(4)</sup>.  
وأول ما يبرز من علاقة الشخصيات الروائية بالبحر، من خلال حزن شخصي يجسده تذكر جاسر الأكوخ ماضي طفولته مع الشقيقين (أولاد خاله)، وما يبعثه مرأى البحر في نفسه: "برحمة بنت خالي الطاهرة التي غدر بها البحر في اليوم الأسود"<sup>(5)</sup>.  
وتتعد دلالة البحر عن الهم الذاتي، إذ يغدو بوابة الوطن للخارج، وطريق الخلاص من ملاحقة العدو، حين ينجح الخال أحمد في تهريب جاسر وصديقه (شاكر) إلى سوريا عبر البحر فراراً من

(1) البيارة: 307.

(2) الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية: 198.

(3) انظر، عالم النص: دراسة بنيوية في الأساليب السردية: 80، د. سليمان كاصد (2003).

(4) انظر: دراسات د. نبيل أبو علي لإنتاج القاص (عثمان خالد أبو حجوج): في نقد الأدب الفلسطيني: 182 وما بعدها، د. حماد أبو شويش حول رواية: نجمة النوتي ضمن (تحليل الخطاب الروائي - دراسات في الرواية الفلسطينية المعاصرة): 130 وما بعدها.

(5) البيارة: 248.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

مطاردة الإنجليز والعصابات الصهيونية بعد قتل جاسر عنصراً من العصابات: "قال الخال احمد وهو يخطو إلى خارج الغرفة:

\_الليل أبو ساتر..سكنونان في جزيرة أرواد قبل مرور أربع وعشرين ساعة" (1).

وقد نجح من قبل آل (أبو صاري) في تأمين المفتي خارج فلسطين بعد أن طارده البريطانيون: "أبو صاري الكبير هو الذي حمل المفتي بالبحر من يافا إلى لبنان، عندما طارده البريطانيون بغية اعتقاله حين تفجرت الثورة عام 1936" (2).

ويغدو البحر باباً للنصرة والإغاثة، عبر الخط البحري بين يافا وجزيرة أرواد: "تبين من حديث الرئيس أحمد أن الخط بين يافا وجزيرة أرواد في اللاذقية عامر بالرحلات النشطة وأن ثمة اتصالاً جارياً مع لجان نصره فلسطين في اللاذقية وحلب وحماة.. (3).

وباباً للحصول على السلاح، بعد أن ضيق الإنجليز على أهل فلسطين حصولهم على السلاح: "مثلما قام أحمد أبو صاري بتهريب ابن أخته على ، فهو قادر على تهريب السلاح بحراً من هناك إلى يافا" (4).

ويغدو البحر في الرواية أيضاً\_ بوابة العودة للوطن فعن طريقه يعود المفتي إلى فلسطين، وجاسر إلى يافا. (5).

وينقلب حب أم جاسر للبحر (رفيق صباها) كرهاً غير مسبوق عندما يكون البحر، سبباً في إبعادها عن البيارة وسلمة وذكريات الزوج المثالي: "ولأول مرة في حياتها كرهت البحر رفيق صباها وتمنت أن تقف على يابسة" (6)، فالموقف من المكان يتحدد من وظيفته السردية في الرواية، ومدى انعكاس أثره على شخصيات الرواية، فالبحر لا يرسل إشعاعات عاطفية جامدة، وإنما يتغير الموقف النفسي منه، تبعاً للأحداث السردية التي تجري عليه، وانعكاس ذلك على الشخصيات. ولم تتغلغل الرواية كثيراً في تفاصيل الحياة البحرية لصيادي يافا قبل النكبة، وإنما مرت عليها مراراً سريعاً، ولم تحمل تفاصيل الحياة القليلة (كالنش والشباك والمينا وبابور البحر والمركب وحسبة

(1) البيارة: 99.

(2) البيارة: 243.

(3) البيارة: 214.

(4) البيارة: 140.

(5) البيارة: 243.

(6) البيارة: 223.

## د . وليد أبو ندى

السّمك.. أي دلالات رمزية في بنية الرواية، بل كانت تفاصيل متممة لصورة البحر الفلسطيني في ذلك الزمان.  
أمكنة أخرى:

دارت في الرواية أمكنة أخرى كان لها دلالة وحضور في البنية السردية في الرواية مثل:

### 1- القرية والبادية:

مثلت القرية الامتداد الفضائي للبيارة، وقد وقف الراوي عند الإطار العام للقرية، حيث وصف أحوال القرية الفلسطينية في ذلك الزمن السابق للنكبة، وطبيعة الحياة الاجتماعية، والمهن السائدة في تلك الأيام وبساطة الحياة في القرية: "الحياة اليومية لها إيقاعها الرتيب، لاسيما في القرية، يفتح الناس عيونهم في الصباح على شايهم وكسرة خبزهم وحليب بقرتهم يخرجون للعمل في أرضهم يعابنون الزرع وهو ينمو في كل يوم بمقدار شعرة"<sup>(1)</sup>، وهي تعكس رتابة الحياة اليومية في القرية الفلسطينية، ودوران حياتهم على رزقهم وعملهم قبل تشويشها من قبل الصهاينة.

وأبرزت الرواية دور المختار في القرية، حيث عكس الراوي صورة مشرقة لدور المختار الفلسطيني، عبر اهتمامه بقريته وحرصه على تجميع أبنائها في دفاعهم عن قريتهم ضد العصابات الصهيونية، وتوفير السلاح لهم: "صار الحصول على السلاح هو الشاغل الأكبر للمختار"<sup>(2)</sup>.

وتبدو البادية الفلسطينية الامتداد المكاني الأوسع للقرية، وتعرض الرواية لعادات البادية وأحوالها في ذلك الزمان عبر الأحداث الدرامية لعواد القادم من بئر السبع وزوجته وضحة القادمة من سيناء: "كان عواد ووضحة يقطنان بيت الشعر معظم شهور العام ولا يلجئهما إلى بايكة الطين إلا اقتراب فصل الشتاء، ولولا اقتران عواد بوضحة من يدري! لعله كان يعزف عن بيوت الشعر.. غير أن وضحة ردت عرسها إلى تقاليد منسوبة منذ النشأة، وأبعدته عن كثير مما اكتسبه بعيدا عن مضارب العشيرة.. فعاد إلى الرعي وأعمال النقل والحراسة بالأجرة واستعاض عن نقصان الدخل بما دأبت وضحة على القيام به كل شهر من بيع محالب الزبد وأكياس اللبن المصفى في سوق المدينة"<sup>(3)</sup>.

ولا يتعدى وصف البادية إلا هذه اللفظات القليلة، وتبرز الرواية وحدة العدوان الذي تتعرض له البادية والقرية، عندما تهاجم العصابات وضحة وتقتلها وهي خارجة لرعي أغنامها، ثم تعاون

(1) البيارة: 137

(2) البيارة: 137.

(3) البيارة: 38.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

رجال القرية وعواد في الانتقام من العصابات بقتل حارسين من حراس المستعمرة التي خرجت منها السيارة العسكرية للعصابات: "لقد انتاب الجميع حزن غامر وغضب لا يوصف ممزوج كله برغبة عارمة في الثأر لمصرع وضحة.." (1).

### 2- بيارة شلومو:

لم ينظر اليهودي إلى بيارته على إنها مصدر رزق وخير، ولم تكن علاقته بها علاقة انتماء وعشق كحال الفلاح الفلسطيني؛ بل كان يرى فيها منطلقاً للعدوان على الجار الذي أحسن إليه كثيراً، ولذا يأتي عجب الجار العربي حين يفاجأ بـ: "الهاغاناه تملا بيارة الخواجة" (2) فهي عنده معسكر للتدريب على اغتصاب أرض الغير: "هم يعملون تدريباً عسكرياً.. يفلدون أصوات ابن آوى، يقفون وينبطحون، يجتمعون وينفرون، يمدون البواريد" (3)، وهي مخزن للسلاح: "كان للمخزن باب من الخشب مدهون بلون أسمنتي يطابق لون الحوض.. وفي الداخل ثروة من البنادق الملفوفة بورقها تفوح منها رائحة قريبة من رائحة الشحم" (4)، وهي مصنع للكيد والاحتياط على الغير، فاليهودي يرى في البيارة منطقة عسكرية يسخرها للموت والقتل والتأمر على الجار العربي: "إن بيارة شلومو هي نقطة التجمع والوثوب على القرية حسب خطة العلميات" (5) فاليهودي لا يرى في البيارة أشجاراً حية ولا مصدراً للحياة والتواصل مع الآخرين، بل هي بؤرة اعتداء وتوسع على القرية التي احتضنت هذه البيارة، ووظنت بها جاراً مسالماً يحمل لأهل القرية الود والسلام.

واقتران البيارة باسم "شلومو" يلقي بظلال العدا لبيارة أم جاسر ويجعل منها رمزاً للمكان المعادي الذي يسعى للتوسع والإغارة على الجار الفلسطيني، ويحمل المكان الآخر/بيارة شلومو، خصائص الآخر/اليهودي الذي يمارس الاستغلال لنوايا الجار الفلسطيني، ويجعل من هذه النوايا الطيبة ثغرات وفرصاً سانحة يتسلل من خلالها للعدوان والاحتلال.

وتتضح دلالات هذه الإشارات السردية، في فضح فكرة التعايش ونسفها من جذورها، لا لأن الجار العربي يحمل العدا للآخر، بل لأن فكر اليهودي ومكانه يقومان على التوسع والعدوان، مما وجدا إلى ذلك سبيلاً.

(1) البيارة: 259.

(2) البيارة: 11.

(3) البيارة: 12.

(4) البيارة: 21.

(5) البيارة: 62.

### 3- مستعمرات العصابات الصهيونية ومعسكرات الإنجليز:

تبدو مستعمرات الصهاينة مصدر الموت للمدينة والقرية الفلسطينيتين ومنها تخرج فرق القتل: "إن مخاتير القرى المجاورة أبلغوه: إن المستعمرات اليهودية تعج بنشاط الهاغاناه، وتدريباتها ليلاً ونهاراً، ولا يخفى أن هدفهم هو الهجوم على القرى والمدن.." (1)

وهي تمثل حالة فزع وخوف عند الفلسطيني الآمن، وفيها يمسخ نفر من الفلسطينيين إلى عملاء للعصابات عبر مسلسل من الإذلال والسقوط كما حدث مع (حفص) الذي خضع: "لبرنامج طويل من تدريب الجواسيس" (2)، يبدأ بالزنا والخمر واللواط ولا ينتهي بالسرقة والقتل والاعتصاب والتجسس.. "وحين بلغ هذه الدرجة من الإذعان والارتباط، كلفه بالذهاب إلى سلمة والانتساب إلى لجنة الدفاع عنها، وقد طلبت منه معلومات تتعلق أولاً قبل كل شيء بمخزن الأسلحة وأعدادها.." (3).

وتعدو معسكرات الإنجليز مكاناً مسانداً للمستعمرات الصهيونية، ومعادياً للمكان الفلسطيني، عندما يصبح سلاحها نهياً للعصابات الصهيونية: "ألم يرويا له أن الضابط المسؤول عن مخزن الأسلحة الواقع في الركن الأقصى من المعسكر ملاً يوم الأحد الماضي شاحنة كاملة كانت تركبها صاحبة اليهودية بصناديق من كل نوع" (4) وهي موطن للفساد ونشر القيم السيئة في المجتمع الفلسطيني: "قيل إنه تعلم شرب الخمر في عمله بمعسكرات الإنجليز" (5).

يبرز المكان على المستوى العمودي مكاناً معادياً، يضم الشر ويمارس القتل والخديعة ضد الفلسطيني المسالم ومكانه، ويغرب الفلسطيني عن قيمه ومجتمعه، ويبدو التحالف التاريخي بين المستوطنة الصهيونية، والمعسكر الإنجليزي، وتواطؤ (المكانين) في احتلال الأرض الفلسطينية وتدمير بنية الإنسان الفلسطيني، عبر مشاهد سرديّة توظف حقائق التاريخ، وتبعث بدلالات بعيدة تؤكد على وهم تعاطف (الآخر) الغربي مع الحق الفلسطيني.

#### التوظيف السردى للمكان في الرواية:

يفجر الصراع حول البيارة أحداث الرواية، ويمثل الصراع بؤرة التوتر في الرواية، إذ يسلك الصراع حول البيارة مسلكاً متعدد المسارب وتتداخل الشخصيات في خيوط الصراع، بحيث تجسد

(1) البيارة: 41.

(2) البيارة: 267.

(3) البيارة: 268.

(4) البيارة: 171.

(5) البيارة: 18.



## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

أم جاسر وارثة البيارة، ويساندها المختار وأهل القرية، والمعارف في المدينة طرفاً رئيساً ضد شلومو والعصابات الصهيونية والسماصرة التي تحاول الاستيلاء على البيارة بالخدعة أو بالقوة، وهما الأسلوبان المفضلان لدى العصابات الصهيونية، قبل النكبة وبعدها، إذ ترسل العصابات السماصرة إلى نصوص تارة أحد شركاء أمه في ميراث البيارة فيأتي الجواب من نصوص للسماسر الذي أوهم (نصوح) بأنه أحد أصدقاء الوالد الشهيد، وهو ينوي أن يشتري أرضاً لأقاربه في القرية هرباً من نزاعات عائلية ثارت في قريتهم، فيأتي الجواب حاداً من نصوص كنصل السيف، بقوله: "ليس لأحد منا أية أرض.. إنَّ الأرض تخصُّ أمنا وحدها..!"<sup>(1)</sup>.

ويتحول السماسر إلى صهر آل الأكوع الحلاق (ميسرة البحري)، لعله يجد عنده ضالته، ولكن البحري يهجم بالموسى على السماسر الذي لاذ بالفرار بعد أن استتجد بأحد جباة البلدية، مصحوباً بالرعب ولعنات البحري تلاحقه: "قواد.. إنه سماسر أراضٍ لليهود.. ويستحق الذبح"<sup>(2)</sup>.

ولم ترسل العصابات سماسراً إلى القرية لإدراكها بموقف القرية من مسألة بيع الأرض ولاسيما لليهود فالفلاح الفلسطيني يساوي بين الدين والأرض وينظر إلى أرضه على أنها جزءاً غالباً من عرضه وشرفه الذي يجب أن يصونه وإلا لحقه العار إن فرط في شير من الأرض كما نقرأ في أغانيهم الشعبية:

ترك السنة والفرضُ ماله شرف ماله عرضُ

كلّ واحد باع شبر في ها الضفة الغربية<sup>(3)</sup>

فيأتي الطمع في أبناء المدينة؛ لعل طول اللبث في المدينة قد يكون أنسى أهلها انتماءهم للأرض، ويأتي رد الفلسطينيين في المدينة قاطعاً وحاسماً كحال أهل القرية، وهذا يبرز توحيد المدينة والقرية في موقف وطني عقائدي من مسألة بيع الأرض أو التفريط فيها، وأن المدينة الفلسطينية صاحبة موقف وطني يساند القرية ويصون حقها الوطني، لا موقفاً متخاذلاً يطعن القرية في ظهرها.

وعندما تفشل الحلقة الأولى تلجأ العصابات إلى مكيدة أخرى، تتمثل في عرض شلومو الجار اليهودي لبيارة الأكوع على أم جاسر بضمناً الشمالية لتاجر يهودي من نل أبيب، وترفض المرأة الفلسطينية العرض المغربي مع حاجتها الشديدة للمال في ذلك الوقت، وترد على شلومو وتاجره

(1) البيارة: 125.

(2) البيارة: 128.

(3) دراسات في الفولكلور الشعبي الفلسطيني: 216.

## د. وليد أبو ندى

بقولها: "لم يعقد الزهر على الشجر بعد وأنا لا أفكر عموماً في الضمان في اللحظة الحاضرة"<sup>(1)</sup> ولم يكن التاجر الكبير إلا أحد أفراد شعبة الاستخبارات التابعة للعصابات الصهيونية، الذي تمرس بأساليب الخداع في الاستيلاء على أراضي العرب.

ويشدد الصراع حول "الأرض" وتتواتر الأحداث السردية وتتعدد أدوات الصراع وأشكاله إذ تبدأ الحرب الخفية في تجفيف بيارة الأكوع، عبر حفر بئر عميق في بيارة شلومو المجاورة، وتركيب موتور ضخيم وظلمة غير عادية لسحب الماء، من بئر الشمالية، وكان "الهدف من ذلك كله هو تجفيف بئر أم جاسر وحرمان بيارتها من الماء"<sup>(2)</sup> وتنجح المكيدة إلى حين، ويتوقف بئر الأكوع عن سحب الماء.

وتبدو لحظة التوتر الأشد في الصراع حول الأرض عندما تمتد خيوط الصراع إلى باطن الشخصيات الروائية وينقلب الصراع إلى هواجس نفسية تؤثر الشخصيات وتصيبها بالقلق الشديد على مصير "الأرض"، كما حدث مع أم جاسر التي: "كانت تتجول بين الأشجار والقلق يأكلها، كلما رأت غصنا أصلاه حر الخماسين فأحرق أطرافه، أو شجرة ذابلة الأوراق عطشا"<sup>(3)</sup>.

وتبرز لحظة التنوير عندما تتجدد القرية والمدينة لرد المكيدة عن بيارة الأكوع، ويرى العاملون في القضية أنها واجب وطني قبل أن تكون عملاً إنسانياً أو معروفاً يؤدي: "اجتمع إلى جانب حماد بضعة عمال من البلدة جاءوا متطوعين في خدمة أم جاسر، يسودهم شعور الولاء تجاه شيء أكبر من الواجب وأسمى من المعروف الشخصي وهو شعور الانتصار لقضية البلد في مواجهة المعتدي"<sup>(4)</sup>.

وتنجح القرية والمدينة في رد المكيدة إلى حين. ويأتي الحاج عيسى بطلمبة قوية تستطيع سحب الماء الذي غار في أعماق الأرض وتتحول المناسبة إلى عرس وطني يشارك فيه أهل القرية: "عمّ الإحساس بالنصر عموم البلدة وأهاليه الذين هرعوا للمباركة والفرحة على موتور أم جاسر"<sup>(5)</sup>، وهنا تختفي دلالات المناسبة الخاصة كي تحل محلها دلالات المناسبة الوطنية العامة، وتأخذ الأمور الخاصة طابع التحدي والصراع، عندما يرتبط ذلك بالصراع مع العصابات الصهيونية، التي تسعى للاستيلاء على الأرض الفلسطينية مستبحة كل أنواع الكيد والقوة.

(1) البيارة: 166.

(2) البيارة: 213.

(3) البيارة: 219.

(4) البيارة: 237.

(5) البيارة: 272.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

ويتصاعد من جديد\_ توتر الأحداث في الرواية، بنشر الإشاعات حول البيارة لحصار أم جاسر وإرهاقها بحرب نفسية ومادية مفتوحة لا تهدأ أبداً: "سرت شائعة لا يعرف أحد كيف انتشرت، تقول: إن الحكومة قررت جعل بيارة الأكوغ وما يجاورها حقل تدريب للجيش، وتساعل البعض كيف يقال: إنَّ الإنجليز راحلون ثم شاع أنهم عادوا يحجزون الأرض للتدريب.."<sup>(1)</sup>.

وتبدو الأحداث السردية في الرواية كدورات حلزونية من الصراع، تبدأ ثم تتصاعد ثم تخبو كي تبدأ دورة من جديد امتداداً لدورة الصراع السابقة، وتبدأ دورة صراع جديدة حين تتجمع العصابات الصهيونية، في خطوة أخيرة لحسم الصراع بالقوة العسكرية التي تجمعت لديها أمام عجز الفلسطيني وضعف تسليحه، فقاومت سلمة ويافا لحماية البيارة، ولكن سقطت بيارة الأكوغ وتشردت أم جاسر وختمت العصابات صراعها حول "الأرض" في الاستيلاء على بيارة الأكوغ: "في النهار التالي وصلت إحدى عائلات سلمة التي بقيت في البلدة حتى اللحظة الأخيرة وروت: أن اليهود استولوا على بيارة الأكوغ.."<sup>(2)</sup>.

ويعمد الراوي إلى "الاستبطان النفسي" لكي يصور انعكاسات الصراع على الشخصيات الروائية، حين تضيق أنفاس أم جاسر بالخبر الكارثة، وتدور بها الأرض وتتمنى الموت على اللحظة الحاضرة التي تغادر فيها البيارة: "تمنت أم جاسر الغارقة في أفكارها لو تصيبها رصاصة في الرأس وتقضي عليها وتموت في بلدها"<sup>(3)</sup>.

فالبعد عن الأرض عند الفلسطيني معادل للموت، وكل طريق بعيدة عن الوطن مرصودة بموت مجاني رخيص، ولذا تتمنى أم جاسر وكل أم جاسر "فلسطينية" الموت على النزوح، وعندما تضطر للخروج تنتشبت بالأرض حتى اللحظة الأخيرة، قائلة: "أريد أن أكون آخر من يخرج.."<sup>(4)</sup>.

وتأتي خاتمة الأحداث السردية "متوقعة"، تتساق مع الحقائق التاريخية للقضية الفلسطينية، ولم يجهد السارد في إعادة تشكيل "حقائق التاريخ" بما يخرجها عن النسق التقليدي المتعارف عليه، ويمنحها الفعالية السردية، المستندة إلى الجدة والتشويق، بل نرى السارد يكاد يعيد سرد أحداث التاريخ، بطريقة درامية تحمل شيئاً من الدلالات الرمزية.

وقد عانت الرواية من كثرة التفاصيل وتداخلها، سواء على صعيد الشخصيات أم على صعيد الأحداث، مما أثقل من حمولة الرواية، وجعل إيقاع الأحداث بطيئاً، ولعله بهذا وبما أورده السارد

(<sup>1</sup>) البيارة: 155.

(<sup>2</sup>) البيارة: 322.

(<sup>3</sup>) البيارة: 321.

(<sup>4</sup>) البيارة: 320.

في تقديمه<sup>(1)</sup>، نرى أن الرواية تنجح "لاتجاه التسجيلي" في الرواية الفلسطينية، ويبدو ذلك اتجاهًا جديدًا للرواية الفلسطينية المستقبلية، كما يستشرف د. محمد البوجي دور الروائي المستقبلي الذي: "يحاول تفرغ همومه على هيئة شكل روائي، هادفًا إلى توثيق حقه وأدواته النضالية للاحتفاظ بهذا الحق للأجيال القادمة"<sup>(2)</sup>، ويبدو التعليل واضحاً لاتجاه أولئك الروائيين نحو "التسجيلية" في الرواية: "يمكن القول: إن الفلسطينيين بدأوا فعلاً يكتبون شهاداتهم صوتاً للذاكرة وديمومة لما يجب تذكره"<sup>(3)</sup>.

ومن هنا تأتي الدلالة الرمزية للمقطع الأخير في الرواية الذي يحمل البشارة والأمل، بعد صون الذاكرة وديمومة التذكر: "تمكن في نهاية المطاف من الوصول إلى غزة لأنه كان مثلهفأً للحفاظ على سلامة ربيحة والجنين في بطنها"<sup>(4)</sup>، ودلالة الجنين الذي حملته "ربيحة الأكوع" في بطنها، قادمة من يافا إلى غزة بيئة؛ في أن الجيل النازح عن أرضه قد حمل معه قرار العودة إليها، وأن الجيل الجديد عليه أن يعود إلى البيارة التي رضع من زهرها الأبيض، وتربى على عشقها والانتماء إليها، وحلم بالذكريات التي سجل حكاياتها الآباء والأجداد.

#### تقنيات سردية:

يوظف الراوي تقنية التراسل الإنساني<sup>(5)</sup> مع المكان كي يبرز حقيقة العلاقة بين الفلسطيني وأرضه، حيث تلبس البيارة صفات الإنسان الفلسطيني وتحمل خصائصه وأسراره، وتغدو المرأة الفلسطينية بيارة من العطاء والوفاء وتتوحد صفات البيارة والمرأة بحيث يتراسل الوصف في كل منهما: "لم تكن هدايت وحدها الكائن الوفي الذي يظل وقياً في الموت كما في الحياة، ولكن البيارة التي تعيش فيها هدايت، وفيه كالمراة التي تسكنها وموسومة بوسم صاحبها في موته كما كانت في حياته"<sup>(6)</sup>، فالبيارة الفلسطينية كائنٌ حيٌّ - ترث خصال الخير والانتماء من صاحبها الفلسطيني، وتغدو حية ومعطاءة وخصبة كالمراة، فهي حملت وأرضعت: "إحدى عشرة مرة، بينهما

(1) مقدمة الرواية: 2.

(2) الآفاق المستقبلية للرواية الفلسطينية في ربع القرن القادم: 48.

(3) قراءات في الأدب الفلسطيني: 195، رشاد أبو شاور (2006).

(4) البيارة: 323.

(5) أثرنا استعمال "التراسل الإنساني" بدلاً من "التشخيص"، لأن دلالة التراسل تعني أن كلاً من البيارة والمرأة يتبادلان الوصف، وليس البيارة وحدها هي التي تحمل سمات الكائن الحي، بل إن المرأة الفلسطينية أيضاً تحمل خصائص البيارة.

(6) البيارة: 67.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

سقطان: ذكر وأنتى" (1) وهي تمارس دور البطولة والقداء كما مارسها الشهيد، فال مقاومة لا تتجسد فقط في التصدي المباشر للأعداء، بل قد يكون في جانب آخر في الحفاظ على الذات والهوية، من خلال التمسك بالقيم والأرض والمكان" (2).

وقد مثلت البيارة لأم جاسر الحياة والبهجة وسكنت في وعيها: "كانت البيارة حياتها ووعياها، ورزقها ومبعث البهجة في قلبها" (3) وبهذه المشاعر الإنسانية كان ينظر الفلاح الفلسطيني إلى أشجار بيارته فهي في منزلة قريبة من نفسه كمنزلة أبنائه وأطفاله: "كان ينظر إلى الشجر بمثل الرضا الذي ينظر به إلى الأطفال وهم يكبرون" (4)، حالة من وحدة الوجدان مع الشجر والمكان والإنسان، تمثل فيها الشجرة عند الفلسطيني منبوع الوجد ورمز العطاء وذلك لأنها: "عطاء الظل والخضرة، ومنها تبنى المحبة والعلاقات الإنسانية" (5)، وتبرز قيمة شجرة البرتقال عند الفلاح الفلسطيني حين ينظر إليها بعين الدلال: "ما أكثر مطالب شجرة البرتقال، وما أكثر عللها، ألا ترى أن دلالتها زائد؟" (6).

ويبلغ التفاني والتشابه منزلة اتحاد الحال والتوحد بينهما: "انتهى الأمر أخيراً إلى وحدة حال بينها وبين البيارة" (7)، البيارة هي المرأة والمرأة هي البيارة معطاء وفيه منتمية معشوقة حبيبة.

ويتوارد التراسل الصوتي بين الأمكنة في الرواية، حيث يحل صوت الساقية محل خرير الأمواج: "أخذت على غير وعي منها تستعويض عن خرير الأمواج بصوت الشلال النازل من ماسورة البئر إلى حوض البركة" (8).

والمرأة الفلسطينية القادمة من جوار البحر ترى في البيارة بحراً أخضر: "وهي تنظر البحر الأخضر الذي أخذ يملأ فجوات الشجر يوماً بعد يوم" (9)، ويبرز التراسل البصري للمكان لما بين المكانين من حالة وجدانية ذاتية أولاً، وذات بعد وطنياً، فالفلسطيني ينتمي إلى كل مكان في

(1) البيارة: 30.

(2) رواية (نجمة النوتي): دراسة نقدية: 142، د. حماد أبو شوايش.

(3) البيارة: 219.

(4) البيارة: 220.

(5) غسان كنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي: 101، د. صبحية زعرب (2006).

(6) البيارة: 225.

(7) البيارة: 226.

(8) البيارة: 10.

(9) البيارة: 220.

## د . وليد أبو ندى

أرضه، ومكانه الآخر دائما يذكره بالمكان الأول الذي تركه، ويحدث لديه التراسل والدمج الوجداني للمكان بحيث يرى الواحد في صورة الآخر.

وينفتح دال المكان/البيارة على دلالات غنية، لا يقف عند حدود السياج الشائك، بل ينبسط كي يحمل توقعات رمزية تستغرق الوطن كله، ويتجاوز دال البيارة الحيز الجغرافي إلى الحيز التاريخي المحمل بالدلالة الوطنية وتأكيد الهوية وإبراز مضمون الصراع، بحيث تمثل البيارة حكاية الوطن وأوجاعه، وضياع البيارة وتشرذم آل الأكوخ يختصر ضياع الوطن وتشتت أهله، فالبيارة الكبرى/الوطن ضاعت يوم أن سقطت سلمة، وضاعت بيارتها، وقد حملت بيارة الأكوخ الكثير من سمات البيارة الكبرى/الوطن وأهمها قداسة الأرض المتصلة بالصحابي الجليل سلمة بن الأكوخ عندما تكون هذه البيارة ميراثاً مقدساً ورثه أبو جاسر عن جده الأول الصحابي الجليل (سلمة بن الأكوخ) فأبو جاسر يكشف سرّاً من أسرار تعلقه بالأرض فالشمالية: "أرض بكر لم تزرع منذ عهد جدنا الصحابي الجليل سلمة بن الأكوخ رضي الله عنه فإذا شمت رائحة الماء أخصبت أضعافاً".<sup>(1)</sup>

فهي البركة المضاعفة التي ميزت بيارة آل الأكوخ، وأطمعت فيها شلومو وسيدته، بالبيارة وبوطن كان يوصف بأنه بلد "السمن والعسل"، وهو ميراث حلال غير مغتصب، وفي هذا تأكيد على حق الفلسطيني في أرضه وحقه في مقاومة الاغتصاب والسلب.

ويرتبط دال الاتجاه في الرواية بحركة المكان، فالشمال يدور في الرواية مشيراً إلى خصوصية ارتباطه بالمكان، فسقوط شمالية آل الزين في يافا إيذانا بسقوط شمالية آل الأكوخ في سلمة، وسقوط شمال يافا مقدمة لسقوط شمال سلمة، والاحتلال دائماً يبدأ من الشمال ولعل هذا الاهتمام بالشمال في الرواية استند إلى دلالاته في الموروث الفلسطيني: "فالشمال في الوطن الفلسطيني الذي سلبه الصهاينة الأكثر خصباً، ونماءً وعطاءً وخيراً".<sup>(2)</sup>

ويبرز استدعاء الماضي وإحضاره في صورة "النداء" الذي يخاطب البعيد الغائب، حين تتادي أم جاسر روح الشهيد (أبو جاسر): "أين أنت يا أبو جاسر؟ هل ترى ماذا يحدث للشجر؟ هل ترى ما يحدث لي؟ قل لي يا أبو جاسر ماذا أفعل؟ أترى شجرة الشموطي هذه كيف ذبلت ولم يعد في

(1) البيارة: 221.

(2) تحليل الخطاب الروائي: 170، د. حماد أبو شويش.

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

ورقها شيء من زيت العافية الذي كنت تسعد به؟ أترى الأرض في الناعورة كيف تشققت وجفت؟"<sup>(1)</sup>

إن استحضار أم جاسر لظل الشهيد ومخاطبتها إياه مخاطبة الأحياء، هو إحدى تجليات التشبث بالأرض والإصرار على المقاومة، في مواجهة العجز والشعور بالقهر ونفاد الحيلة، فإن حضور الشهيد واستدعاء الماضي صورة من صور الحماية من قسوة اللحظة الحاضرة، ويمتزج في الاستدعاء طيف الزمان بالمكان: "قوة الاستدعاء في الحقيقة ليست إطراراً من الذاكرة من نظام الزمان والمكان، مختلطاً بتلك الظاهرة التجريبية للإدراك نعبّر عنها بالكلمات"<sup>(2)</sup>، ويبدو النداء اختراقاً لحيزي الزمان والمكان الحاضرين بما يحمله حرف النداء "يا" المشتغل على حرفي مد بمخرجيهما المتسع وامتدادهما السمعي من اتساع الأفق واختراق حيزي الزمان والمكان، فتفتح لها ولكلماتها أماكن الآخرين وتستحضر ماضيهم، وهذا يتضافر مع رسالة الشهيد الوطنية التي كان يعمل بها الشهيد في حياته<sup>(3)</sup>.

ويظل الزمان المتوقع بقتامته ونذره مساحة المكان في الرواية، ويستثمر الراوي تقنية الاستباق والتوقع في بيان خوف الفلسطيني على أرضه ومكانه ومصيره الغامض، إذ يثير تدريب العصابات هو اجس الخوف لدى الفلسطيني المسالم: "ماذا هدفهم من التدريب على السلاح؟ أهو التسليية أم الاستعداد لمحاربتنا؟"<sup>(4)</sup>.

ويصور الزمن السردي إلى الإمام حيث يتصاعد التوجس والخوف من المستقبل القريب، الذي ربما حمل معه نذر الأسى والنكبة "لا يمر يوم إلا ومعه نذر تتوالى.. نذر لا يجهلها من كان صاحب تجربة، فبالأمس القريب انتشرت الهاغاناه في ليل المنطقة كلها من سلمة إلى الخيرية ويازور والعباسية وبيت دجن والسامرية حتى اللد في تحركات عسكرية ذات طابع هجومي، ومن يدري لعلهم قاموا بمثل ذلك الانتشار وتلك التحركات، في أماكن أخرى من البلاد...!"<sup>(5)</sup>.

ويجلل التوجس المكان الفلسطيني بأكمله، وتتشارك شخصيات الرواية هذا الإحساس بقتامة الزمن القادم، فإن التسلل لبيارة الأكوغ يفتح باباً للتوجس والخوف من شر أكبر قادم عند أم جاسر والمختار: "وجدت نفسها تكاد تستسلم لإحساس لم تسمح له أن يتسلل إلى نفسها حتى في أصعب

(1) البيارة: 236.

(2) نقد الرواية في الأدب العربي الحديث: 154، أحمد إبراهيم الهوارى (2003).

(3) انظر: ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر: 17.

(4) البيارة: 34.

(5) البيارة: 170.

أيام فقد زوجها كانت مصدومة بعنف لاجتراء كائن من كان على التسلل إلى البيارة منتهكاً حرمة المكان متطاولاً على هيبة صاحبة الشهيد" (1)، وهذا التسلل يفاقم الإحساس بالخطر لدى المختار: "أما المختار فقال في نفسه: إن ما حدث نذير بالشر الذي يتجمع غيمة سوداء في الأفق" (2). ويكتشف الرئيس أحمد القادم من يافا عن قرب الخطر الذي بات قريباً من البيارة والبلدة: "لقد باتت عليماً بأحوال البلدة متوجساً من فداحة الخطر المحقق ببيارة أخته وأولادها" (3) ويتنامى الشعور بالخوف من الغد القريب والإحساس بالخطر القادم في الرواية حتى يصبح إحساساً عاماً لأهل القرية بعد مقتل وضحة: "حدثت نقلة في الإحساس العام في البلدة فسيطر عليهم شيء أكبر من التوجس من الماضي ولم يعد شيئاً مستبعداً بل أدرك الأهالي أنهم دخلوا الحرب فعلياً" (4) وتشارك المدينة القرية في إحساسها بالخطر بالقادم المجهول، ولاسيما من المقيمين بجوار المستعمرات والمدن اليهودية كالحلاق ميسرة البحري: "كان يحس إحساساً قوياً بخطورة النوايا المعادية لاسيما أن موقع سكنه ومحل عمله في القسم الشمالي من المدينة على حدود تل أبيب" (5) ويغدو ذلك الإحساس قاسماً مشتركاً بين القرية والمدينة بعد مشاركة المدينة في تشييع وضحة: "لقد صب استشهاده وضحة مزيداً من الزيت على جمر متقد وعزز الشعور بالخطر عند الجميع" (6). ويتملك أم جاسر شعور غامض وهي تجمع ما تبقى من متاعها القليل كي تغادر البيارة إلى الميناء بعد اشتداد المعارك في (سلمة) بأن هذه اللحظات ربما كانت آخر عهدها بالبيارة: "وربما خطر لها على نحو غامض أنها قد لا تعود إلى البيارة..." (7)، وهذا الاستباق لم يكن زائفاً أو غير متوقع بل كان نتيجة لما تقدم في الرواية من تفاعلات سردية وهواجس نفسية تنحو منحى النهاية المتوقعة لطبيعة الصراع التاريخي بين الفلسطيني المسلم، وبين المغتصب الإسرائيلي، ويلخص صدق التوقعات والاستباقات التي ظللت المكان في الرواية، ويكتب النهاية الحزينة في نفس الفلسطيني، قبل أن تكون واقعاً مشاهداً على الأرض، وهذا مما يزيد من وجع الفلسطيني الذي عاش

(1) البيارة: 67.

(2) البيارة: 67.

(3) البيارة: 232.

(4) البيارة: 270.

(5) البيارة: 91.

(6) البيارة: 260.

(7) البيارة: 317.



## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

ضياح أرضه مرتين: مرة في صورة هواجس واستباقات، طحنت نفسه وطمأنينته، ثم انقلبت إلى حقائق تاريخية، كان عليه أن يسلم بها ويتعامل معها بواقعية.

### الخاتمة والنتائج

• تلون المكان في الرواية، وتعدد انعكاساً لتعدد الطبيعة الجغرافية في فلسطين من بر وبحر وبادية، كما انعكست في الرواية التشكيلات البشرية في فلسطين كالمدينة والقرية والمعسكر والمستعمرة، وهذا يدل على اتساع المكان في الرواية.

• لم يقف الراوي في وصفه للمكان عند حدود التوصيف الحسي، بل امتد إلى التوصيف الجمالي والوجداني الذي يعكس تعلق الفلسطيني وعشقه لمكانه الأول/الوطن، مستثمراً طاقات الخيال وشعرية اللغة.

• أبرزت الرواية قيمة الأرض عند الفلسطيني الذي يسكن القرية أو المدينة أو البادية، وإن اختلفت ثقافته، وتغير موقعه من الحياة العامة.

• لم يكن الصراع في الرواية صراعاً في المكان، بل كان الصراع حول المكان، إذ مثل المكان بؤرة الصراع وحقيقته، وكان للمكان قيمة بنيوية في توتير الأحداث مع سائر عناصر البناء الروائي.

• تناولت الرواية المكان على مستوى عمودي (فضلاً عن أفقية المكان) حيث توزع المكان في الرواية بين الألفة والعداوة أو الاطمئنان والتوجس، وقد عايشت الشخصيات المكان على مستويات عدة، فإن الصفات التي يظهر بها المكان في البنية السردية تأتي تجسيداً لحقيقة العلاقة بين الشخصية والمكان.

• تظلل المكان في الرواية بظلال التوجس والحذر، ومزج الراوي بين الاستباق والتوقع كظلال زمنية استشفافية للمستقبل وبين الخوف والتوجس على المكان إذ تسلط هذا الهاجس على فقد المكان الحاضر، وقد انقلب هذا الهاجس حقيقة على الأرض.

• أمعن الراوي في الوصف التسجيلي للمكان والأحداث، وبدا السرد الروائي في بعض المواضع توثيقاً تاريخياً للحق الفلسطيني، وعانت الرواية من كثرة التفاصيل وبطء الإيقاع.

• لم تتناول الرواية قضية الأرض/الوطن تتولاً عاطفياً ساذجاً، بل كشفت عن رؤية إنسانية ذات بعد وطني تستند إلى منطق الحق والتاريخ، في دفاع الفلسطيني عن أرضه وتشبثه بحق المقاومة في وجه العدوان والاحتلال، فالمكان في الرواية رؤية وقضية كما هو عاطفة فالمكان أضحي يقدم رؤية تتجاوز حدود الإشعاعات العاطفية الساذجة.

## د . وليد أبو ندى

- أظهرت الرواية بطولة المرأة الفلسطينية، وأبرزت قيمتها النضالية المتميزة في معركة مقاومة العدوان والمحافظة على الأرض، وقد احتلت المرأة الفلسطينية في الرواية موقعا متقدما في معركة الدفاع عن الأرض.
- وظّف الراوي أدوات سردية متعددة لإبراز قيمة المكان ودلالاته وجماليته في البنية الروائية، ومزج بين ظلال المكان النفسية وبين زمنية الأحداث التي كانت تتسارع وتيرتها، وتتشكل ظلالها في النفوس قبل ولادتها في أرض الواقع.

## المراجع:

1. الآفاق المستقبلية للرواية الفلسطينية في ربع القرن القادم، د. محمد بكر البوجي\_ضمن (تأملات نقدية في نماذج الأدب الفلسطيني المعاصر) جمع وإعداد: عزت الغزاوي، رام الله/ط1(2001).
2. أفنعة الحقيقة وأفنعة الخيال، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت (1992).
3. إضاءة النص، اعتدال عثمان، دار الحداثة: بيروت (1988).
4. البيارة الضائعة، ناهض منير الرئيس، رابطة الأدباء والكتاب الفلسطينيين: غزة/ط1(2010).
5. تحليل الخطاب الروائي: دراسات في الرواية الفلسطينية المعاصرة، مجموعة باحثين، منشورات الملتنقى الفكري للأكاديميين في قطاع غزة، ط1(2006).
6. التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب: القاهرة/ط4.
7. جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت/ط2(1984).
8. حركة التجريب في الرواية الفلسطينية من الستينات حتى 1995، د. عدنان عثمان الجواريش: الخليل/ط1(2003).
9. دراسات في الشعر الفلسطيني المقاوم، د. عبد الخالق العف، إصدارات رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين: غزة (2010).
10. دراسات في الفولكلور الشعبي الفلسطيني، عيسى الحسيني، دار جرير للنشر والتوزيع: عمان/ط1(2006).
11. ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر، إبراهيم نمر موسى\_ضمن (تأملات نقدية في نماذج الأدب الفلسطيني المعاصر) جمع وإعداد: عزت الغزاوي، رام الله/ط1(2001).

## المكان في رواية "البيارة الضائعة"

12. الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين، د. شكري عزيز الماضي، دار الشروق: عمان/ط1 (2003).
13. الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، علي محمد عودة (1997).
14. شعرية المكان في الرواية الجديدة: الخطاب الروائي لادوار الخياط نموذجاً، خالد حسين حسين، الرياض (2000).
15. عالم النص: دراسات بنيوية في الأساليب السردية، د. سلمان كاصد، دار الكندي: إربد (2003).
16. غسان كنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي، صبحية زعرب، دار مجدلاوي: عمان/ط1 (2006).
17. في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل أبو علي، دار المقداد للطباعة، غزة: ط1 (2001).
18. في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة: الكويت (1998).
19. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، دار الفكر: بيروت (1983).
20. قراءات في الأدب الفلسطيني، رشاد أبو شاور، دار الشروق/ط1 (2007).
21. لسان العرب، محمد بن مكرم (ابن منظور)، علق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي: بيروت (1988).
22. المرأة في الرواية الفلسطينية (1987\_2000)، زكي العيلة، مركز أوغاريت: رام الله (2003).
23. نقد الرواية في الأدب العربي الحديث، د. أحمد إبراهيم الهواري، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية: القاهرة (2003).
24. نكبة فلسطين عام 1947\_1948، حسني أدهم جرار، دار الفرقان: عمان (1994).